حول مصطلح الإنسان في القرآن ٣

ماذا على الإنسان كما يريد القرآن

بقلم الدكتور: محمد أحمد العزب

ويضع القرآن الكريم مصطلح (الانسان) موضعه الطبيعي من حركة الكون والحياة ، فهو سيد الأشياء لأنه خليفة الله في الأرض ، وهو متمرد لأنه مناط المعرفة ، وهو هش لأنه مخلوق من عناصر الهشاشة ، وهو ملتزم لأنه حر ومسؤول .

ومادام هذا هو الانسان في جوهره الحقيقي ، متردداً بين السيادة والأهلية والضعف والالتزام ، بكل ما تحمل هذه الجوانب المختلفة من تناغم وتضاد ، فان القرآن الكريم لم يتركه نهباً لرياح التناقض ، ولكنه ملأ وعيه الانساني بوصايا الحب وحكمة التفكير .

وتتصل وصايا الحب في القرآن الكريم بمستويين متقابلين : مستوى حب الوالدية النوعية وتقديم الولاء الكامل لهذا الحب ، ومستوى الارتفاع فوق هذا الحب وتخطيه اذا تعارض مع الولاء الكامل لقضية التوحيد .. لأن الوالدية في أبلغ صورها – حناناً ورحمة – مجرد وعاء لحمي يمنح ويستوعب نطفة في قسمة عاطفية مشتركة بين متعاطفين .. ولكن الخالقية هي المصدر الأول الذي يفيض ببلاغة الخلق وبلاغة التكوين .. فاذا قام تعارض ما بين الوالدية والخالقية ، فان الانحياز الى الخالقية يصبح حتمية كونية واعية تصدر عن حركة الذات السوية المخلوقة [illegible]ـه بلا جدال :

(ووصينا الانسان بوالديه حسناً ، وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، الي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) العنكبوت : ٨

وليس انتفاء الطاعة هنا مدخلا الى انتفاء الحب والبر ، فان الوالدية مطاعة في كل شيء ، إلا اذا تخطى هذا الشيء دائرة المعقول الى دوائر اللامعقول ، بمعنى أن من حق الولد أن يرفض طاعة الوالدين في شركهما بالله ، لأن خالق الولد والوالدين أقمن بالطاعة ممن سواه حتى ولو كان هذا السوى هو الأب اللاصق والأم الرائمة ، وهذا منطق طبيعي يتساوق مع قانون الحكمة وصواب التقدير .

ولكنه حتى في اطار مروق الوالدية كما نرى ، يطالب القرآن الكريم الولد ببذل الطاعة الحياتية والمعروف المادي والنفسي لوالديه ، لقاء ما حملت الأم وعانى الأب في شعاب الكدح المرير ، وإن كان قد خص الأمومة بشيء من البيان لدورها ، نظراً الى منطق الضعف الذي هو بها ألصق منه بالوالد الرجل الصبور :

(ووصينا الانسان بوالديه ، حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله في عامين ، أن أشكر لي ولوالديك ، الي المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفاً ، واتبع سبيل من أناب الي ، ثم الي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) لقمان : ١٤ – ١٥ .

وواضح هنا أن المقصود بالشرك هو صاحب هذا التوجيه العاطف الرؤوم ، ومع ذلك فان رحمته سابقة على بطشه القادر ، ان الشرك هنا ليس بسوى الله .. (وان جاهداك لتشرك بي) (وان جاهداك على أن تشرك بي) .. ومع ذلك فهو يعمق في خلد الانسان الابن مصاحبتهما في الدنيا معروفا ، وهذه قمة العفو في قمة الكنود .. يؤكد ذلك أن الشرك هنا ليس قضية حاصرة مقصورة على الذات المشركة ، ولكنه شرك متحرك عنيد يريد أن ينقل ظلامه الى الآخرين ، أي أن الوالدين لا يريدان أن يشركا وحدهما وإنما يجران ابنهما الى مناطق الشرك ، وكان مقتضى العدل أن ينسحب البطش المرصود لقضية الاشراك على كل المواقف والشخوص ، إلا أن الذي يضع تأصيل القضايا هنا ليس بشراً خاضعاً لمنطق الفعل ورد الفعل ، وليس مخلوقاً محكوماً بغريزة الانتقام ، وإنما هو خالق الكون والحياة والانسان ، وهو من هذا المنطلق يعامل مفردات خلقه بمنطق الحب لا بمنطق البطش ، وبقانون العفو وليس بقانون الثأر ، وبمنهج الرب وليس بمنهج الآدميين .

ومن هنا تكون وصايا الحب في القرآن الكريم نزوعاً الى دفع (الانسان) في طريق الدماثة والانتماء ، وفتح حوار مستمر مع الأجيال الجانحة أملا في

تخليق حس ايماني يترقرق في صحارى وجداناتهم المغلقة ، ويترع وجودهم الجدب بأزاهير اليقين .

أما حكمة التفكير التي ملأ القرآن بها وعي انسانه المسلم ، فتتجلى في الآيات الكريمة التي تفسر (للانسان) موقفه من قوى الشر في العالم ، وتهمس أو تدوي في وعيه بضرورة أن يتأمل القضية على ضوء من العقل الباصر والذكاء النبيل .

ولأمر ما كان الشيطان هو رمز الشر والهبوط في هذا العالم المائر : هو المال اذا انحرف ، وهو الجاه إذا تجاوز ، وهو الجنس اذا اعتدى ، وهو القبح اذا ساد ، وهو الغباء اذا تجسد ، وهو الحقد اذا اشتعل ، وهو الفتنة اذا استشرت ، وهو التحلل اذا شاع ، وهو الالحاد اذا تبجح ، وهو الكفر اذا استفاض .. هو هذه الأشياء ، أو فلنقل هو حامل وزر هذه الأشياء ، ومن قدر الانسان على الأرض أن يكون في حاجة الى المال ، وأن يستعصم ببعض الجاه ، وأن يمارس قضية الجنس ، وأن يرى الجمال والقبح وأن يحس الفطانة والغباء ، وأن يواجه الصفاء والحقد ، وأن يعيش الاستقرار والفتنة ، وأن يشهد التماسك والتحلل ، وأن يقرأ الايمان والالحاد ، وأن يعاصر اليقين والكفر .

وإذن فهو عائش في قلب التيار ، ولكن هذا الحلول التاريخي في قلب حركة ما لا يسوغ له أن يكون ريشة في مهاب رياحها العاتية .. انه مطالب بأن يجعل من المال وسيلة لا غاية ، ومن الجاه عدالة لا افتياتاً ، ومن الجنس نظافة لا نتناً ، ومن تقابل الأضداد في الجمال والقبح ، والفطانة والغباء ، والصفاء والحقد ، والاستقرار والفتنة ، والتماسك والتخلل والايمان والالحاد ، واليقين والكفر ، جدلا يفضي سيئه الى حسنه ، وهابطه الى سامقه ، وجدبه الى خصيبه .. وبهذا يضرب الجمال وجه القبح ، وتنتصر الفطانة على الغباء ، ويسود الصفاء فوق الحقد ، ويطرد الاستقرار الفتنة ، ويحكم التماسك التحلل ، ويسحق الايمان الالحاد ، ويصفع اليقين الكفر .

حينذاك ينطفىء منطق الشيطان ويتقهقر الى الوراء ، ويمضغ عداوته المريرة للانسان في ضعف ذليل :

(إن الشيطان للانسان عدو مبين)
يوسف : ٥
(إن الشيطان كان للانسان عدواً مبيناً)
الاسراء : ٥٣

ومتى تكاملت (للانسان) دائرتاه الماثلتان في وصايا الحب وحكمة التفكير .. كان في مأمن من انحداره الفاجع الى وهدة الكراهة أو وهدة الغباء .. وهما ألد أعداء الانسان والانسانية على السواء!!

ولكن .. لماذا كل هذا الحرص القرآني على تأصيل قضية الحب وقضية التفكير في تربة الوجود الانساني ؟ ولماذا تتخطى قضية الحب دائرة التعاطف مع الأشباه في العقيدة لتشمل الأضداد في هذه العقيدة ؟ ولماذا أيضاً تتخطى قضية التفكير ما هو محس الى ما هو متعقل ؟

إن فلسفة الرؤية القرآنية في هذا الصدد تنهض على أن الحب كل لا يتجزأ وأن التفكير كذلك هو الآخر كل لا يتجزأ ، فاذا أحب (الانسان) فان حبه يبدأ من نقطة الالتزام بتجريد الذات من ظلام الكراهية والحقد والالتواء ، انطلاقاً من وضعيته الرسالية على الأرض بما هو مأمول لتطويع كل القوى المعادية والمعارضة لرؤيته العقيدية ، مهما أوغلت هذه القوى في فدافد الرفض والانكار .. واذا فكر (الانسان) فان تفكيره يبدأ من نقطة الوعي بالمادي المشاهد ، وينتهي الى الوعي بالمتعقل المحجوب ، انطلاقاً من وضعيته الخلافية على الأرض بما هو مطالب بربط عناصر الوجود في وحدة متناغمة يفضي محسوسها الى معقولها لتكون في النهاية لوحة متناغمة متكاملة تنطق بروعة الخلق واعجاز الحكمة الكامنة في بنائها المخلوق لله .

فاذا كان هذا هو الأساس الفلسفي للرؤية القرآنية في مجال الحب والتفكير فان بدء حركة الحب ينبغي أن يوجه الى الأقرب والألصق (الوالدية) ليصل من ذلك الى الآماد الكونية المتراحبة بلا حدود ... وكذلك ينبغي أن توجه حركة التفكير في بدئها الى القوى المناوئة (للذات) ، لتصل من ذلك الى كل القوى المناهضة للوجود الشامل ، لتكون من هذه وتلك على حذر مؤسس على بداهة المعرفة وموضوعية الفقه وصوابية التحديد .

وهكذا يدفع القرآن الكريم بالانسان الى قضية الحب والتفكير دفعاً مؤسساً على فلسفة راشدة وليس على مجرد جذب عشوائي ، لأن الانسان بالحب يستطيع أن يحرك كل الكون في اتجاه الله .. ولأنه بالتفكير يستطيع أن يجعل من المعادلة الوجودية لساناً لاهجاً بتقريظ السماء .. وقد فعل الانسان .. ومايزال قادراً على الفعل البطولي في هذا السبيل .

• • •

نستطيع في نهاية الرحلة أن نوجز فهمنا لوضعية (الانسان) بلفظ (الانسان) في القرآن الكريم : فهو خليفة الله في الأرض .. وهو بذلك مجلى لاعجازه الخارق .. وهو مناط رعايته ، سلحه بالعقل ، وحرسه بالرسالات ، وسخر له الكون والوجود .. وتحدث اليه حديثاً حميماً عن انفلاته وتمرده .. وعن ضعفه الكامن في طبيعته .. وعن ضرورة التزامه بما هو حر .. وعن وعيه بقضية الحب وقضية التفكير .

ونعتقد اعتقاداً راسخاً وجازماً معاً ، بأن هذه الفلسفة القرآنية المعجزة في تناولها لمصطلح (الانسان) تشكل منهجاً عقائدياً وسلوكياً واجتماعياً ونفسياً وتاريخياً يضع المناهج الأرضية في أزمة دائمة .. فهي تستخلص الانسان من قبضة ذاته ومجالاته ، وتضفي عليه ألواناً من الكمالات التي تثري حسه بصميمية وجوده في الوجود .. ومتى استشعر الانسان هذه القضية صار على الفور صديقاً للحياة والأحياء ، يقيم من بنائها ما تهدم .. ويرفع من راياتها ما سقط .. ويضيء من مصابيحها ما أطفأته رياح الاحباط ، وعشوائية التخليط .. وهذه هي غاية الخلق في الوجود الانساني ، بكل ما تحمل هذه الغائية النبيلة في أطوائها من عظمة الخالق وروعة المخلوق !!